ماريا

أقصوصة انجليزية

بقلم الأديب احمد عبد العظيم شحاته

... لو أنك ترفقت قليلاً في سيرك ، ولم تك مسرع الخطو وأنت تطوى حافة الميناء منذ عشرة أحوال قضت للحظات زورقاً فضى اللون جذابا يحتمله النهر — في عتمة الليل — فوق صدره الثائر المرتجف ، وقد توارى من صفع الرياح القاسية في ناحية قاصية خلف سد منيع قائم بين الأمواج ...

فاذا ما الفجر انبثق وجرى نسيمه الوانى الرقيق ، انفلت الزورق من قيده ودلف إلى عرض النهر هادئاً وادعاً ينساب كالثعبان ... يغمره سحر الفجر وجلاله ويلفه صمت رهيب متصل ... وفي سويعات الظهيرة ، وقد احمرت عين السماء وعم الضجيج ودبت الحركة ... هنالك يتراءى من وراء الأفق البعيد شراعه الناصع الرقيق مقبلاً يتهادى في فتور وعناء ، وقد أنقض ظهر الزورق الرشيق أكوام السمك القانعة ذات البريق ...

وتوقف الربان فوق رأس الزورق بين الأمواج الوادعة ذات صباح منصوب الصدر مرفوع الهامة يرنو إلى السماء ويجيل عينيه في أنحائها برهة موجزة لا ينشب بعدها أن يتحول عنها قائلاً لرفيقه المطرق الكئيب :

— ألا ترى يا صديق الغيوم فوقنا تتلبد ؟ .. ثم السماء هي الأخرى توشك أن تثلجنا ... أليس الرأى عندك أن نؤوب ؟ ..

وظل الربان في موقفه يتطلع إلى زميله وهو مطرق ذاهل حتى رفع رأسه من بين كفيه في تؤدة وعناء ، وطفق يرق ببصره الزائغ إلى السماء رويداً رويدا ، ثم ما لبث أن استرده وقد انتشر على شفتيه بسمة طفيفة ساخرة وهو يلقى جوابه الوجيز :

لا . لا إخالها تفعل ...

ثم عمد إلى راحتيه فأسلم إليهما رأسه المكدود وعاد السكون الحاد فالتأم فوق رأسيهما من جديد ..

لم يكن تونى ملاحاً خبيراً ، وكنت أحنو عليه حنو الاخوة لأن أمى — أعزها الله وأكرم مثواها — حملته إلى مقرنا ووضعته بيننا رضيعاً يتيما فارقه أبواه وخلفاه وحيداً ، فدب معنا وجرى مجرانا حتى إذا ما بلغ مبلغ الرجل فتش عن ذويه فما وجد لهم أثراً ولا لنفسه موئلاً غير موئلنا ، فارتضى عشرتنا واطمأن إلى جوارنا ... وكنت في هذه الاثناء يافعاً حلو القسمات أملس الشعر فاحمه ، رحيب ما بين المنكبين مستوى العود فارعه ، وكان تونى على نقيضى ضاويا نحيلاً مكفأ اللون لا يفيق قط من أحزانه ، سموما أبداً من غير سبب أو علة ظاهرة ... يكد بدنه ويغلو — متلذذاً مرتاحا — في تمنيته وتجشيمه صنوف التعذيب والارهاق ...

وكنت لا أملك وإياه من متاع الدنيا شيئاً غير هـذا الزورق الذى يسعى كل يوم مع الشمس ، وحانوت ضئيل حرج نبيع به السمك الذى نصيد .. وكن لم يعد يوما غرفتين باردتين عاريتين تقومان خلف الحانوت بقليل . .

وأحسست يوماً أن صدرى يضيق وأن قلبى ينقبض ، فمشيت إلى الفضاء الوسيع الذى يحاصر مسكننا ألتمس الراحة والهدوء ، غير أننى ما كدت أنقل فيه بعض الخطى حتى أظلم السكون فى عينى وأحسست أن الأرض تميد تحت قدمى . . وبدرت منى حينئذ صرخة دوى بها الفضاء . . وألقيت ببصرى إلى الأرض فى لهفة وسرعة ، فاذا الدم يتصبب من قدمى حاراً غزيراً .

لقد قيل لى يومئذ إن مسماراً حاداً منتصباً ، هو الذى وطئته قدمك شبه العارية ، فكان هذا الدم القانى الذى روعك ... ولكننى فى الواقع لم آبه لشىء مما وقع إلا عند ما أبصرت القيح يوماً يطوق فوهة الجرح من كل جانب ... عندئذ تسرب الىّ الخوف ، ولم أجد إذ ذاك بداً من أن أهرع إلى المستشفى ... وهناك فى طريق بدا لى طيف صديقى وحيداً صامتاً ينهض بأعباء عملينا الناصبة المضنية والعرق يتفصد من بدنه الناحل المزبل ... لقد أخذتنى الشفقة به فالحيت عليه أوصيه أن يترفق بنفسه وأن يشرك معه من يقوم مقامى حتى يحين أوبتى . .

وانصرفت أسابيع قلائل أنفقتها جميعاً تحت سقف المستشفى حتى اندملت قدمى وقاربت الشفاء ؛ عندئذ رأيت أن أفارق محبسى فشخصت إلى مقرنا من غير أن أعلم صديقى ... وأدركت بابنا الصغير فألقيت يدى على مقبضه ، ولكننى دفعت دفعاً هيناً رفيقاً حتى لا يسمعنى صديقى ... كنت أبغى أن أفجأه إلا أننى ما كدت أخطو أول خطوة حتى وقع بصرى على فتاة رقيقة فاتنة ما كادت تمحنى فى مكانى حتى بادرت إلىّ قائلة فى لطف ودعة : هأنذى ياسيدى . . أأستطيع أن أقضى لك حاجة ؟

عرانى وجوم شديد وتولتنى وقتئذ الحيرة ، فمددت إلى لسانى استحثه واستنهض همته فخذلنى الثرثار ولم ينبس بغير هـذه الكلمات القليلة التى بها من مكمنه ، ثم عاوده جموده وتصلبه : نعم . . خدمات كثيرة يا آنسة ... وما كدت أفرغ من إلقائها حتى رن بغتة من وراء الحجرات صوت رخيم بدد السكون المخيم وملأ أذنىّ كما ملأ جو الغرفة .. وتبينت هذا الصوت جيداً فاذا به ! . . يا عجبا ! . إنه صوت تونى ! تونى يغنى . . . تونى الكئيب المنقبض . . . تلك لعمرى إحدى المعجزات . .

وهفت نفسى إلى رؤية هـذا المنظر العجيب ودرت على عقبى أحاول العدو إليه قبل أن يرتد إليه حزنه ، إلا أننى والحق أقول ألفيت نفسى عاجزا وأطرافى جامدة لا تقبل الحركة ، وأحسست رغبة وجنوحاً قوياً للبقاء ، فلبثت فى مكانى أجيل عينى فى قوامها الساحر المشوق .. فى خديها الناعمين .. فى فمها القرمزى الدقيق . . فى ساقيها الممتلئين . . فى . .

— سيدى ما حاجتك ؟ .

ووجدت لسانى فقلت : ولكن خبرينى أيتها الآنسة الصغيرة ماذا تفعلين هنا ؟!.

فأجابتنى وقد غطى الدهش صفحة وجهها الجميل :

— إنى أبيعك . . . أنت أو غيرك من هذا السمك . . أنا ماريا ، أما أنت فأجهلك ويخيفنى منك صمتك ونظراتك . .

— ولكن هيبى كتمتك حقيقة أمرى

فهزت كتفيها الصغيرين ومدت شفتها الدقيقة قائلة :

— وماذا يضيرنى يا سيدى ؟ بل ليتك تفعل

قالت ذلك واتخذت سبيلها إلى بعض الآنية تتناولها واحدة فواحدة وتنفض الغبار عنها ثم تردها إلى مواضعها ، ووقفت أنا أرقبها عن كثب . كانت رائعة ساحرة . . وجسدها ناحلاً مغرياً يشف عنه ثوبها الحريرى المحبوك . . . وسنحت فى رأسى فكرة : . لابد أن تكون هذه غانية أتى بها صديق لتلهو معه . وكان السكون حولنا مرفرفاً والأبواب كلها مؤصدة . بسمت أطرافى واشتدت ضربات قلبى والتهبت رأسى ثم شبت النار فى كيانى وما أسرع شبوبها فى كيان الملاح !

دنوت منها وجسمى يضطرب اضطرابا شديداً فارتدت إلى الوراء مذعورة ، وكادت تولينى ظهرها فاحتوتها ذراعاى الممدودتان وتلقاها صدرى الملتهب . . . وعالجت الفرار ولكنى استبقيتها ؛ ولم أشعر إذ ذاك بذراعى وهى تنساب منى وتطوق جسمها اللين الدافئ ، وتضمه إلى وهى تدفعنى عنها دهشة خائفة : سيدى ما هذا ؟ . . قف . . تمهل . . إننى لست عرضة للبيع سيدى . . — ولكننى لم أسمع اقولها بل حدقت فى عينيها الصافيتين الخائفتين وشعرها المبعثر على محياها الوضئ . . . لقد طار عنى صوابى وتلاشى السكون من أمام عينى فأهويت بفمى على ثغرها — كالمجنون — أغمره بالقبل وانشق أنفاسها الدفيئة العذاب . . .

واضطرب جسمانا الملتصقان وانتبهت مذعوراً عند ما اخترق أذنى صوت من أقصى الغرفة . . .

لم أك أقدر أن ثالثاً معنا يشهد كل ما جرى منا . . كان جامداً كالتماثيل يتصبب منه الغم والألم ، ولم أدر لم كان يصوب إلينا هذا النظر المروع المخيف . وأخذ يتقدم نحوى متكلفاً السرور وهتف فى صوت متهدج تلوح فيه رنة الأسى العميق :

— ها أنت ذا أخيراً يا جيم ! كيف أجدك الآن ؟ كيف حال قدمك ؟ ولكنك لم تنبئنى بموعد قدومك إنه جيم يا ماريا صديق وشريكى

وأمسك عن الكلام هنيهة وطفق يمسح جبينه بيده ويقبض على فكيه ، ثم عاد ينظر إلى مستأنفاً قوله : (صديق . . أريدك وحيداً . . فى مكان خلى . أريد أن ألقى إليك سراً)

وأمسك بذراعى وكان طبيعياً ألا أحجم أو امتنع عليه ، فاستسلمت له وانحدرنا إلى الطريق ومضينا فيها جنباً إلى جنب صامتين واجمين لا أحدثه ولا يحدثنى . .

وقف توم عن السير فجأة ، فالتفت إليه فابتدرنى ضارعاً مستعطفاً :

— ألست تعلم يا صديق أننى قضيت العمر حزيناً كاسف البال موجع القلب : . حتى قيض الله لى ماريا ؟ كم أحبها يا صديق ! . . . لقد بعثت فى الحياة . . بددت عنى الهموم . تصور أننى أصبحت كلفاً بالغناء ! دعها لى ربك ولا تصرفها عنى . . . إنك جميل ؛ وإن شئت سعى إليك كل النساء ؛ أما أنا فخلق سئ ووجهى دميم ، لا أفوز إلا بسخرهن

لقد مست كلماته منى موضع الألم فأقبلت عليه

أحاول الترفيه عنه :

— كم أنت طيب القلب يا تونى !.. إن ماريا هذه ليست لى ولا لك ... سلنى عن هذا الضرب من بنات حواء ... إنها امرأة الجميع ..

ما كدت أتم كلمتى هذه حتى فوجئت بلكمة قوية قاسية أطارت صوابى وطوحت رأسى إلى الوراء ، وكدت أسقط على أثرها لولا أن تماسكت قليلا وفتحت عينى دهشاً متعجباً فألفيت صديقى يرغى ويزبد ويتأهب للكى ثانية ، فأسرعت إلى وجهى أغطى صفحته بقبضتى وما خطر لى حينئذ أن ألطمه لعلى أن اللكمة من يدى قد تؤدى به إلى التهلكة ، فصحت به وأنا أتراجع إلى الوراء أن كف يا تونى ولا تكن غبياً ، ولكن قبضته خلصت إلىّ واستقرت فى بطنى ..

لقد صورت لى شدة الألم أن جسمى قد ارتفع عن وجه الأرض فهجمت عليه من غير وعى وضربته ضربة دار على أثرها ثم هوى بجسمه الضئيل تحت قدمى

وتهافت الناس مسرعين من كل حدب وانحنيت بقامتى المديدة على صديقى الممدد الصريع واحتملته بين ذراعى كالطفل ومضيت به إلى صيدلية قريبة ... وسألنى الصيدلانى وهو يهرول مسرعاً من وراء قواريره وزجاجاته : « ماذا حدث .. ماذا جرى له ؟ » ولكننى لم أستطع جوابه فقد كان حلقى جافاً وكنت فى شغل عنه أصلى من أجل صديقى وأضرع إلى الله أن يفتح تونى عينيه وأن أرى الحياة تسرى فى كيانه ... وحقق الله رجائى عندما قرب الصيدلانى يده حاملة إلى أنف صديقى زجاجة صغيرة فاهتز رأسه ثم فتح عينيه الوادعتين برفق فقلت له :

— عفواً يا تونى ! إننى ما قصدت إلى إيذائك قط ولكن ...

— ولكن هيا بنا ولننس ما قد سلف

لكننى كنت على يقين من أن تونى لن يغيب عنه مما مضى شىء ... وانطلقنا عائدين وسبقنى هو إلى الدخول فتلقفت إليه ماريا ثم أنشأت تضحك ملء شدقيها وتقول : « تونى ... إنك تبدو مضحكا للغاية » ونظرت إليه فإذا لونه يزداد امتقاعا !.. هى إذن لا تضمر له الحب ... فلو كانت تفعل ما سخرت منه ولا اتخذت شفتيه الغليظتين الداميتين هزؤا !

كانت لطمة أخرى عنيفة تلقاها البائس ومضى على وجهه حتى داراه باب المخدع ، وأقمت أنا فى مكانى وقد رأيت رأياً خلته كفيلا بأن يرد إليها هناءنا المفقود .. لم أكن متماسكا بل أحسست كأن ماء بارداً يجرى فى عروقى عندما ناديتها فدنت منى تسألنى فى صوت لين رقيق عما أطلب ؛ بيد أنى أخذت أقص عليها كل ما دار بينى وبين صديقى وهى تنصت لى والابتسامة على ثغرها تتسع شيئاً فشيئا ، حتى إذا ما فرغت من حديثى أطلقت ضحكة خافتة :

— إننى لست فتاته ولا فتاة غيره يا سيدى . وهب أنى سأعشق يوماً فثق أن من أعشقه سيكون رجلاً قوياً لا شبحاً هزيلاً . وكان طبيعياً أن يخلص إلى الزهو فأعجب بقوتى وبنيانى ولكننى تأهبت لأنبئها عما انعقدت عليه نيتى

ماريا ... لقد ارفض عنى الألم وأصبحت على النهوض بعمل قادراً ، فخير لنا ولك أن تطرقى عملاً غير هذا !

كان لكلماتى عليها وقع شديد فلبثت على أثرها مبهوتة شاخصة ، ثم اندفعت نحوى

وأمسكت بذراعيّ قائلة :

— رحمٌ ... أيطاوعك فؤادك أن تحرم فتاة مثلي رزقها ؟ لا . لقد نضيت وقتاً طويلاً مشردة ساغبة حتى وفقت إليه ... بربك لا تدرني أرحل

وشرعت تبكي وتنتحب ؛ ولم أك في حياتي قد شهدت امرأة بين يدي تبكي فلا عجب إن بدا مني الضعف والخور حيال دمعها المدرار ...

مضت الأيام مضياً بطيئاً ثقيلاً ، ومضى كل منا يعمل عمله في صمت وهدوء ، وأخذ تونى منذ ذلك اليوم يتجنب لقاء ماريا ، وأخذت أغني معها قاعات الجو كلما هوى قرص الشمس وأظلنا الدجى .

وانبثق نور الفجر ذات يوم فولينا وجهينا شطر الميناء . . ووقفت فوق صدر الزورق منفرج الساقين منقبض الصدر يتملكني شعور مبهم ثقيل ، وتحدثني نفسي بشر مستطير ... كان الضباب أمام أبصارنا منعقداً كثيفاً ، والزورق من تحت أقدامنا قلقاً مضطرباً يتقاذفه الموج الثائر المصطخب ، والريح تملأ الفضاء زئيراً مخيفاً مزعجاً ، وطفت ببصري أبحث عن تونى فألفيته في قاع الزورق يحدجني بنظرات مفزعة ويمرر يده برفق فوق خنجره ، فاشتد رعبي وانفجرت صارخاً بين هدير الأمواج وزئير الريح :

تونى . لا بد لنا من العودة ... هيا اطو الشباك .

وامتثل تونى على الفور وطفق يجذبها في تؤدة وبكدسها تحت قدميه وهو ثابت هادئ وجعلت أرقب فراغه بلهفة وشوق حتى أسرع بتوجيه الزورق صوب الجنوب ، ولكنه ما كاد يأتي على آخر الشباك حتى أحسست أن قلبي قد فارق موضعه وانقضضت عليه أحاول القبض على ذراعيه :

— تونى لا تفعل ... رد الشباك ثانية ولا ترفعها . أنظر إن بها (القاتعة) ! إنها فأل سيء ، سيهلك ولا ريب أحدنا يا صديق .

لكنه وكأنه لم يفقه قولي ظل يضم الشبكة اليه والسمكة الرهيبة تدنو منا شيئاً فشيئاً .

— تونى ... لا تكن نزقا ... ستجر علينا الكوارث ... ستسوق إلينا الويلات .

أصم تونى أذنيه وتركني في مكاني ، وانطلق مسرعاً نحو كومة الحراب فاستل منها واحدة وعاد فصوبها الى السمكة الهائلة ، فلما أصابتها شدها بحبل غليظ الى الزورق وتركها تتخبط وتتملص وتضرب الماء تريد النجاة ...

وقصدت السكان مستسلماً ونظرى لا يفارق تونى وهو يلوح بخطاف غليظ في يده حتى بلغ مربط السمكة فأخذ يربطها به ... وارتفعت أمامنا في هذه اللحظة جبال من الموج هائلة فانصرفت عيني الى الزورق وعندما التفت الى الوراء جمد الدم في عروق ! ...

كان تونى على قيد أقدام مني بشع الهيئة مخيف المنظر يقهقه والخطاف في يده يضطرب :

— تونى ماذا جرى لك ؟ ... وصحت مرتاعاً : تونى هل جننت ؟

فأجابني في صوت مختنق مرتعش كحشرجة الموتى :

— أجل ... أجل ... منذ شهور ثلاثة والنار تأكل مني ... وأنت قرير العين عاريا .

كان صوته يقرع أذني كالطبول فخليت السكان ورحت أراجع وهو يلحق بي حتى ارتطمت

قدمي بحافة الزورق .

— توني ... كيف أقسم لك أني ما كنت أشعر بأنك تتعذب .

وجف حلقي وأخذ العرق يتصبب من جبيني برغم برد الشتاء : — أتريد قتلي ؟ ...

— ليتني أقوى ... سأموت معك ... سيطوينا اليم ... سنصعد الى أمنا في السماء .

وحانت مني التفاتة الى النهر فصرخت فيه مذعوراً :

— توني ... انتبه ... حاذر .

ولكن كان الحبل قد التف حول ساقه فانتزعه (الوحش القاتم) وحمله معه الى اليم وهو ينظر اليّ مستغيثاً تمتد منه اليدان ...

« وارحمتاه له ! » قلتها وهو يغيب بين الأمواج .

« دعه يهلك ... لن يلومك أحد ... لقد أراد لك الموت ... فليلاق جزاءه » .

وسكنت الريح قليلا فشعرت أن هاتفاً يهتف باسمي بصوت كأنما ينحدر من علياء السماء ... لقد خيل إلي أن أمي تطل من بين السحب وتصيح به : ولدي ... ولدي ... أنقذ أخاك .

وابتدرت المياه مسرعاً ومضيت أشقها بذراعيّ وهي تنهش جسمي نهشاً حتى رأيت صديقي بين معترك الأمواج يتخبط ويتشبث فاندفعت نحوه صائحاً : « توني ... توني ... لا ترحل ... إنني آت » وطفقت أسبح وأرد الموج عني وألطمه بكلتا يدي ولكن ... دون جدوى ! كان توني قد ذهب ...

كانت ماريا واقفة لدى الباب عند ما طرقته بقدمي ، فلما أبصرتني وحيداً مشعث الرأس مبهوتاً سألتني وقد انتقع لونها : أين توني ؟

— لقد التهمه اليم ...

وارتميت على مقعد قريب ثم انفجرت باكياً ... وإني لكذلك إذ شعرت بيد تربت على كتفي ، فرفعت وجهي فاذا بها قائمة فوق رأسي يفتر ثغرها عن ابتسامة بغيضة ... لقد بدا لي وجهها حينذاك بشعاً منكراً .

وثار في صدري الغيظ والمقت الشديد فصحت بها :

— هيا اخرجي من بيتي ... لا أطيق أن أراك بعد الآن ... إنني أكرهك .

— جيمْ ! ! .

— هيا قبل أن أحطم رأسك بهذا المقعد ...

وعدت أدراجي الى الطريق وجعلت أهيم على وجهي ذاهلاً مشرد العقل والساعات تتدفق على فلم أفق حتى كان الليل قد ولى مدبراً وصدر النهار يعلو رويداً رويداً ...

يوم جديد ! ... وأمسكت بين أهداب عيني دمعة مترقرقة ... أين أنت يا توني ؟ ... في غور الماء وحيداً ممدداً بين الصخور يخيم عليه الهدوء والصمت كعادته ... أحمد عبد العظيم شحاته

آلام فرتر

للشاعر الفيلسوف جوته الألماني

الطبعة الرابعة

ترجمها أحمد حسن الزيات

وهي قصة عالمية تعد بحق من آثار الفن الخالد

وثمنها ١٥ قرشاً